المقتطف

الجزء الاول من المجلد الخامس والخمسين

١ يوليو (تموز) سنة ١٩١٩ — الموافق ٣ شوال سنة ١٣٣٧

الفردوس الارضي

هل يقرّ القرار على جمعية الامم قبل صدور هذا الجزء من المقتطف وهل تشترك فيها الامم كلها عاجلاً او آجلاً وهل يسلمن بشوائبها وهل يفضي ذلك الى إبطال الحروب واستتباب الامن وانتشار الانصاف في المكونة فتصير فردوساً ارضيًّا. هذه مسائل تخطر على بال كل مفكّرٍ راغب في اقناع الناس انهم اخوة وان هذا التكالُب على الدنيا لا موجب لهُ لان خيراتها كثيرة وما لا بدَّ منهُ للصحة والراحة جِدّاً وعقلاً لا يحتاج الى عناء كثير. ولكن الناس لا يرتدعون لان الجشع فطري في النفس رسَّختهُ الدهور الطوال فلا يزول بخطبة خطيب او عظة واعظ او مقالة كاتب. ولا يظهر ان الدول الكبرى عاقدة النية على الكف عن الاستعداد للحرب ولو توسلت الى ابطالها بكل وسيلة ممكنة وهذه الجمعية من اقوى هذه الوسائل

جمهورية افلاطون

ولقد ظن بعض الفلاسفة وكبار الكتّاب انهُ من الممكن ان يعيش الناس بعضهم مع بعض بالوئام التام وكان في مقدمتهم افلاطون الفيلسوف اليوناني الذي نشأ في اواخر القرن الخامس قبل المسيح فوضع كتابهُ في الجمهورية او السياسة المدنية. وقال فيهِ ان المدينة التي يرى كل واحد من سكانها ان ما فيها هو لهُ ولغيره فلا يستأثر بهِ وحدهُ هي المدينة التي بلغت سياستها الغاية القصوى من الانتظام. ولكن افلاطون فرض ان اهل مدينتهِ هذه او جمهوريتهِ من الخاصَّة كلهم وغرضهم اقتناء الحكمة لاغير اما الاعمال الشاقة فلا يعملونها هم بل يعملها

لهم عبيدهم. وسائر الاعمال الصناعية والتجارية يقوم بها الغرباء. وفرض ان السكان ثلاث طوائف الاوصياء والانصار والمنتجون. والاولون احكم السكان ويجب ان يكون عمر كلٍّ منهم خمسين سنة فاكثر والاراضي كلها لهم وللانصار مشاعة بينهم. والنساء يماثلن الرجال في الحقوق يتعلمن كما يتعلمون ويعملن الاعمال التي يعملونها ويحاربن مثلهم. ولكن مضت اربعة وعشرون قرناً قبلما اعترف الرجال بمساواة النساء لهم في كل الحقوق المدنية والسياسية وقد تمضي مدة مثلها قبلما تصير الاراضي كلها مشاعة

اوتوبيا مور

ومن الذين فكّروا في انشاء فردوس ارضي او جمهورية يتساوى سكانها في كل شيء حتى تشملهم الراحة والطمأنينة السر توماس مور السياسي الانكليزي المشهور الذي نشأ في اواخر القرن الخامس عشر واوائل السادس عشر وقُتل صبراً لانهُ لم يعترف للملك هنري الثامن بانهُ رأس الكنيسة الانكليزية

كان مور من زعماء الفضلاء المهتمين بما يزيل المساوىء من الدنيا ويكثر فيها الصلاح. وفي عهده وصل امريكوس وكولمبس الى اميركا وذاعت اقاصيص كثيرة عن سكانها فالّف رواية تخيّل فيها ان رجلاً سافر مع امريكوس ثم ثارت الانواء فافترق عنهُ وبلغ جزيرة مجهولة اسمها اوتوبيا (١) سكانها سعداء ناعمو البال حكومتهم خالية من كل عيب. فلما عاد منها وصفها وصفاً مسهباً في هذه الرواية. وقد كتبها مور باللاتينية وطبعها في لوفين سنة ١٥١٦ فذاع صيتها حالاً وترجمت الى الايطالية والهولندية والالمانية ولم تترجم الى الانكليزية الاّ بعد وفاتهِ لانهُ كان يخشى ان يطّلع الدمة على ما فيها من انتقاد الحكام فتقوم قائمتهم عليهِ من الملك فنازلاً ومع ذلك لم ينجُ من غيظهم فاودى بهِ. ومما انتقدهُ استئثار الاغنياء بالعقارات (الاطيان) وتحويل جانب كبير منها الى حراج للصيد والقنص وترك الفقراء يموتون جوعاً او يصيرون لصوصاً وقطاع طريق. وكان عقاب السارق عندهم حينئذٍ القتل مهما كانت السرقة طفيفة. وقد قال في هذا الصدد «ان عقاب السرقة شديد جداً وكان الواجب ان يجهّز كل احد بالوسائل التي توصلهُ لتحصيل معيشتهِ فلا يضطر الى السرقة والقتل بها» وقال ان ذلك واقع في اوتوبيا

(١) من كلتين يونانيتين معناهما لا مكان

فان المتقنيات كلها مشاعة هناك وليس احد يأبى العمل بل كل احد يعمل ست ساعات كل يوم يعمل فيها لمصلحة الجمهور ويتناول ما يحتاج اليهِ لاغير

ووصف حال الناس في بلاد الانكليز حينئذٍ فقال « ان النساء لا يعملن شيئاً في الغالب وهن نصف السكان واذا كان بعضهن يعملن فرجالهن لا يعملون. وانظر ما اكثر خدمة الذين الكسالى واضف اليهم كل الاغنياء ولاسيما الذين يملكون اطياناً واسعة ويحسبون انفسهم من الاعيان فانهم وعيالهم من طائفة الكسالى العاطلين الذين هم للظهور لا للعمل. واضف ايضاً طائفة الشحاذين الاقوياء الابدان الشديدي الجرأة الذين يطوفون بالبيوت مدعين المرض . فاذا فعلت ذلك وجدتَ ان العمال حقيقة الذين يعيش الناس من عملهم اقل كثيراً مما يُظَن . ثم ما اقل الذين يعملون اعمالاً نافعةً حقيقةً لان جانباً كبيراً من الاعمال يقصد بهِ الفخفخة والابهة لا غير. ولو اقتصر كل العمال على تحصيل الحاجيات وما منهُ نفع حقيقي للناس لزادت الخيرات وهبطت الاسعار وقل ربح الاغنياء منها. فاذا اقتصر العمال على عمل ما يفيد وابطل الكسالى كسلهم ونهضوا الى العمل النافع وجدوا ان القليل من الوقت كافٍ لعمل الاعمال اللازمة النافعة التي تعود عليهم بالسعادة لان السعادة هي الغاية القصوى التي يسعون اليها — السعادة العقلية والسعادة الجسدية

وعندهُ ان السعادة العظمى هي الصحة التامة وهي اساس كل سعادة . وقال ان اهالي اوتوبيا يهزأون بما نعدهُ من مسرات الحياة فتركوا صيد الوحوش والطيور للحيوانات والعبيد وهم الذين يُحكم عليهم بالاشغال الشاقة لجرائم يرتكبونها . وعندهم ان الذين يسرُّون برؤية الحيوان يذبح ويهرق دمهُ عقولهم افسدتها الشراسة والقسوة او كلت من كثرة ما رأت من هذه الاعمال

وقال ان الاوتوبيين احتقروا الذهب والفضة وجردوهما من قيمتهما حتى لا يفسدا الاخلاق واستعملوهما لعمل السلاسل والقيود التي يُقيَّد بها العبيد ولغير ذلك من الاغراض الدنيئة . واعطوا حجارة الماس للاولاد ليلعبوا بها كأنها قطع الزجاج. واستهزأوا بمن يفتخر بثيابهِ لانها مهما كانت لا تخرج عن كونها من صوف الغنم وهو لباسها . وقد رسخ ذلك في نفوس السكان حتى اذا جاء بلادهم سفير من بلاد بعيدة لابساً حلة مزدانة بالجواهر ضحك الاولاد منهُ وعدوا الى امهاتهم وهم يقولون ما اسخف عقل هذا الاحمق فانهُ رصَّع ثيابهُ بالجواهر كالاطفال .

فاتبرهم امهاتهم وقلن لهم اصمتوا هذا ليس السفير بن هو من المبرّحين الذين حضروا معهُ . ولا محامين في اوتوبيا لان سكانها يقولون ان عمل المحامين قلب الحقائق وتعويج الاحكام . ولا يحسبون للحرب فائدة ولا لتجنيد الجنود ولكنهم يوجبون على كل احد ان يتمرّن على استعمال السلاح رجلاً كان او امرأة لكي يدافع عن نفسهِ . ويشيرون بانتحار المرضى الذين قُطع من شفائهم الامل والشيوخ الذين تعبوا من الشيخوخة . والحكومة تجد لهم سبيلاً للانتحار من غير الم اذا شاؤا ذلك بعد ان يقنعهم القسوس والقضاة بانهم لا يجدون في الحياة غير الالم . والتفريخ الصناعي شائع عندهم (كما هو شائع عندنا في مصر ولعلّ مور لم يكن يعلم ذلك ولا كان التفريخ الصناعي معروفاً في اوربا)

والخلاصة ان سكان اوتوبيا متساوون على قولهِ فلا فقير فيهم ولا معوز وليس منهم من يملك شيئاً خاصاً بهِ ولكنهم كلهم اغنياء لان الغني هو القنوع المطمئن البال الذي لا يخشى ان يحل بهِ الفقر او ان تنقصهُ زوجتهُ

وحكومة اوتوبيا في يد حكام ينتخبهم الشعب وعليهم امير ينتخبهُ الشعب ايضاً ويبقى متسلطاً مدى عمرهِ الاّ اذا اوجس الشعب منهُ انهُ يحاول استعبادهم فانهم يعزلونهُ حينئذٍ

اتلنتس باكن

وجرى لورد باكن مجرى السر توماس مور وسمّى فردوسهُ اتلنتس الجديدة وخالفهُ في انهُ جعل سكانها من الادباء كما جعل افلاطون سكان جمهوريتهِ من الفلاسفة فقال باكن ان الغرض الذي ترمي اليهِ هو معرفة اسباب المسبّبات واسرار الكائنات ليتّسع نطاق سلطة البشر وتشمل كل ما يمكن ان تشملهُ . ونحن تجار ولكن ليس غرضنا الحصول على الذهب والفضة والجواهر ولا على الحرير والطيوب ولا على شيء من البضائع المادية بل الحصول على اول شيء خلقهُ الله اي على النور»

مدينة الشمس

وقام في عهد باكن توماسو كمبانلاّ الايطالي (١٥٦٨ — ١٦٣٩) وجعل فردوسهُ الارضي مدينة الشمس وكان راهباً دومنكيًّا سجنهُ ديوان التفتيش في نابلي ٢٧ سنة فوصف هذا الفردوس وهو سجين وصفاً ينطبق على تعليمهِ الديني وميلهِ الفلسفي فاشار بالاشتراكية تحت نظر سلطة دينية متخذاً ما فعلهُ الجزويت في

بلاد باراغواي مثالاً له. ويجعل ساعات العمل من كل يوم اربعاً فقط واشار بان تكون المقتنيات كلها مشاعة حاسباً ان خير السواد الاعظم من الناس هو الغرض الذي يجب ان ترمي اليهِ الحكومة

وقام بعيدهُ المطران يوسف هول الانكليزي (١٥٧٤ — ١٦٥٦) وتهكم على دعاة الفردوس الارضي فوصف بلاداً ديمقراطية سكانها كلهم حكّام لا يطيعهم احد يقضون امور حكومتهم في مجتمعات عمومية ترى فيها كل احد متكلماً ولا من يسمع. وعندهم مجلس نيابي جلساتهُ متصلة لا نهاية لها

ومن اشهر القائلين بالفردوس الارضي شارل فوريه الفرنسوي (١٧٧٢ — ١٨٣٧) وهو من العلماء المتبحرين المغرمين بالتنظيم كأنهُ جزء في تنسيق الارقام الحسابية والاشكال الهندسية فاراد ان ينظم البشر جماعات جماعات وسمّى كل جماعة منهم فيلقاً وكان برسباين الاميركي من اشهر تلامذتهِ الجادين في خطتهِ فلبى دعوتهُ اربعون فيلقاً بين سنة ١٨٤٠ و١٨٥٠ ولكن آل امرهم كلهم الى الافلاس

واشهر ما حدث في اميركا من هذا القبيل انشاء الفردوس الارضي المعروف باسم بروك فارم الذي شاد هوتورن بذكرهِ في روايتهِ بليثدايل رومنس. وكان من اغراضهِ ان يزيد الاتحاد بين الذين يشتغلون بعقولهم والذين يعملون بايديهم على قدر الامكان الى ان يجتمع الشغل العقلي والعمل البدني في الشخص الواحد اي حتى يصير كل عامل عالماً مفكراً . ولا يطلب من احد ان يعمل الاَّ العمل الذي يطلبهُ ذوقهُ ويميل اليهِ طبعهُ ولا يحرم احد من ثمار عملهِ . والغرض من ذلك تعليم الناس كلهم وجعلهم احراراً مفكرين علاقتهم بعضهم ببعض على افضل مما يحتمل ان تكون ما داموا متناظرين متنافسين

وكان بروك فارم هذا مزرعة فيها ١٧٠ فداناً عاش سكانها والمترددون اليها من المهتمين بامرها عيشة الصفاء والهناء كأنهم في فردوس ارضي فعلاً ولكنهم لم يفلحوا ماليّاً لا لخلل في ادارتهم بل لان النار شبّت في منازلهم واحرقتها. وكل الذين حاولوا اصلاح البشر في زمن قصير وجعلهم يسيرون على سنة فرضوها لهم فشلوا فيما حاولوهُ لان نوع الانسان مفطور على اتباع سنّة الارتقاء البطيء المتدرّج

واسرع مفعول فعلت تغيراً تكلّف شيء في طباعك ضده